تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ

لمندوب الرسالة

بقية المنشور في العدد الماضي

اليوم الرابع

كتابا الحيوان ، والبيان والتبيين هما أهم ما للجاحظ من الآثار التي وصلتنا ، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء ، ولقد كان اليوم الرابع ميعاداً للقول في هذين الأثرين الكبيرين ، وكان درس الحيوان منوطاً بالأستاذ « كراوس » ، وكان الكلام في البيان والتبيين على الأستاذ مصطفى السقا .

وقد تكلم الأستاذ كراوس عن الحيوان كلاما مستفيضاً فوضح غرضه وأهميته . واهتم كثيراً بتحقيق الصلة بينه وبين كتاب الحيوان لأرسطو فقال : إن أبا منصور البغدادي قد ذكر أن الجاحظ لم يعمل شيئاً إلا أن سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطو ، ثم ضم اليه ماذكره المدائني من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان ، ولكن البغدادي هذا كان يطعن على الجاحظ ، وكان كثير النيل منه ، فقوله قول خصم لا يصح أن نقبله على علاته ، ونحن وان كنا نعتقد أن الجاحظ قد اتصل بالثقافة اليونانية ووقف على آراء أرسطو في الحيوان ، إلا أننا نعتقد أنه ألف كتابه ليعارض كتاب أرسطو ، وليقيم الدليل للشعوبية على أن العرب أصحاب علم ومعرفة كسائر الأمم ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إذ يقول في مقدمة الحيوان : « وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا ، وإسلاميا جاهليا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب » .

ولذلك كان الجاحظ يهتم كثيرا بحشد أشعار العرب وأقوالهم وحكمهم في الحيوان ، كما كان يهتم بالسخر من أقوال صاحب المنطق والضحك منها ، فالبغدادي قد غبن الجاحظ وتجنى عليه وتنقصه بغير حق

وتكلم الأستاذ السقا من بعد ذلك عن البيان والتبيين فقدم بين يدي الموضوع كلاماً طويلا يتصل بشخصه أكثر مما يتصل بأمر الكتاب ، فذكر أيامه في دار العلوم وهو طالب ، وقال : إنه كان يكره البيان والتبيين ويستثقله وينفر منه ، حتى حببه إلى نفسه نصيحة أستاذ مخلص ، فأقبل عليه وانتفع به في ثقافته الأدبية ، وبلغ من إعجابه به أن كان يعاود قراءته ، ثم عرض لموضوع الكتاب وذكر أبوابه وفصوله ، وتكلم في أسلوبه وطريقته وأفرغ عليه كثيرا من الثناء والتمجيد ، ومن العجب أنه ذكر تعريف الانسان الذي نقله الجاحظ عن ارسطو فقال : إنه الحي الميت ! ! وقد سمعناه يعيده ثانية بهذا النص ، وإنما هو الحي المبين على ما نعرف ، ولكنه نطبق التعريف كما جاء محرفا في الكتاب ! !

اليوم الخامس

وكان القول فيه للأستاذين ابراهيم مصطفى وأحمد الشايب ، وكان موضوع الكلام للأستاذ ابراهيم مصطفى عن « دعابة الجاحظ » ، وقد التبست الدعابة بالدعابة على السامعين ، فانتظروا من الأستاذ أن يفيض عليهم من فكاهات الجاحظ ونوادره ولكنهم دهشوا إذ رأوه لا يمس ذلك ولا يتقرب اليه ، فجاؤا باللوم العنيف على الأستاذ ، وقالوا : إنه أهمل موضوعه وخرج عليه ، وما كان مبعث هذا كله إلا تلك « النقطة » الخبيثة التي أهملتها يد الطابع ، فأساء إلى الأستاذ وأساء إلى السامعين !

وقد ابتدأ الأستاذ القول في دعابة الجاحظ بما كان بينه وبين أبي هفان اذ قيل لأبي هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ ! فقال : أمثلي يخدع عن عقله ؟ ! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة !

وعلق الأستاذ على هذه النادرة فقال : ونحن اذا تأملنا هذه النادرة نجد أن أبا هفان الشاعر قد تراجع أمام الجاحظ الناثر ، أو بالأحرى نجد الشعر قد انهزم أمام النثر ، ذلك لأن

الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، فاستخدمه فى موضوعات لم تكن له من قبل ، وراضه على سبل استعصت على الكتاب السابقين ، ثم إن الجاحظ فى نثره قد اهتم بالتقرب من الجمهور ما استطاع ، فأخذ يطرق الأمور التى تشغل بالهم ، ويكتب فى المعانى والأغراض التى تحيط بهم فى حياتهم الأدبية والاجتماعية والأخلاقية والدينية ، ولما قامت الفتنة بين المأمون والأمين واندفع الناس فى تيار تلك الفتنة ، كان ذلك مما مكن الصلة بين الجاحظ والجمهور ، لأنه ابتدأ يؤلف لهم فى هذا الذى انصرفت اليه عقولهم ، فكتب كتاب الإمامة لهم ، فوقع عندهم الموقع الحسن ، وقد قرظه المأمون وأثنى عليه ، وإن تقريظ المأمون فى الواقع لأدق وصف لكتب الجاحظ وكتاباته .

على أن الجاحظ فى تقربه من الجمهور والعامة لم يكن الا متبعا لتعاليم المعتزلة الذين أخذوا يعملون لدفع الجمهور للعلم ، وتقريب المعارف من نفوسهم بشتى الوسائل الممكنة ، ونحن اذا تأملنا كثيراً من كتبه نجده قد اختار موضوعاتها مما يليق بالجمهور ويروج عندهم مثل كتاب البخلاء

ولقد كان الجاحظ يدخل على نفوس العامة من ناحية أخرى هى ناحية الدعابة والتفكه ، فإنه كان يحفل بذلك ويعتد به ، ولست أذكر من فكاهات الجاحظ وأساليبه فى ذلك ومبلغ قوته فى التصوير ، فإن من قرأ منكم شيئاً من كتب الجاحظ فقد أدرك ذلك وتحققه ، ثم عرض الأستاذ لكتاب التربيع والتدوير فقال : إنه نمط من فكاهة الجاحظ ، ولكنه ملأه بالأسئلة عن اشياء لا تصح ، وفيها ما يدور فى أذهان العامة والجمهور ، ولم يعمل الجاحظ على أن يجيب عنها ، وقد قال الجاحظ فى آخره : فان أردت أن تعرف الفاسد والصحيح من هذه الأسئلة فالزم نفسك باب دارى ، وقراءة كتبى [1]

وعرض للجاحظ فى موقفه من المرأة فقال : ان الجاحظ لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة ، ولكنه قد دافع عنها واكبر من شأنها ، وله كتاب « الحرائر والإماء » كتبه فى مناصرة الإماء والثناء عليهن وتفضيلهن على الحرائر [1]

ثم تكلم عن أسلوب الجاحظ بما هو معروف ، وقال إنه لم يؤثر فى أحد من بعده تأثيراً فنيا ، وإن ابن العميد الذى كان يتعصب للجاحظ ، ويلقب فى ألسنة الأدباء بالجاحظ الثانى لم يكن له من خصائص الجاحظ شىء ، حتى القاضى الفاضل الذى يقول فى كلام له : أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب الا من دخل من كتبه الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج على كتفه منها كاره ، لا نعرفه قد تاثر بالجاحظ فى قليل ولا كثير [2] ، ثم أخذ يقارن بين الجاحظ وبين المبرد فى طريقته وأسلوبه ، ولم ينس ثعلبا فى هذه المقارنة . . وانتهى بعد ذلك الى القول بان الجاحظ كان داعية كبيراً ، قد استطاع أن يتصل بالجمهور الى حد بعيد ، وأن يؤدى لنفسه وللمعتزلة من هذه الناحية شيئاً كثيراً ، فكان مثله فى ذلك مثل الصحفى الماهر فى أيامنا الحاضرة [3]

وقام من بعد ذلك الأستاذ أحمد الشايب للكلام فى مآخذ الجاحظ فابتدأ القول بكلام الناس فى ثقافة الجاحظ واتساعها وثنائهم عليه من هذه الناحية ، وقال إن الجاحظ كان واسع المعارف حقا ، قد اتصل بكل النواحى الفكرية والعقلية فى أيامه ، ولكن ثقافته كانت ثقافة عامة أو قل ثقافة صحفية يتلقفها من دكاكين الوراقين ، وقد كان ذلك مذموماً فى عصره حتى كانوا يقولون : هو صحفى اذا أرادوا الذم ، ونحن نرى أن الجاحظ وان كان قد ألم بكل شىء ولكنه لم يتبحر فى شىء ، فثقافته أخذ من كل شىء بطرف كما يقولون

قال الأستاذ : ولقد أخذت أنظر الجاحظ فى كل ناحية من نواحى ثقافته فما وجدته إلا على ما وصفت ، ثم انتقص كلامه فى الحيوان ، وأورد فى ذلك كلام الباحث الفرنسى كارادفو فى كتابه « مفكرو الاسلام » وقد كان غاية ما حاوله

---

(١) كأنى بالأستاذ الفاضل لم يتبين الغرض الذى كتب الجاحظ من أجله كتاب التربيع والتدوير ولذلك فهو يؤاخذه بهذه الخرافات التى سردها ، والجاحظ إنما قصد إلى ذلك لتهكم بصاحبه وهو قد أشار إلى ذلك فى أول الكتاب وفى الحيوان ، ثم إنه أورد العبارة الأخيرة على أنها خطاب للقارىء والجاحظ إنما خاطب بها صاحبه .

(١) المعروف للجاحظ كتاب الجواري وكتاب القيان

(٢) فى الواقع أن الجاحظ قد أثر فيمن جاء من بعده تأثيراً كبيراً بأسلوبه وطريقته وثقافته ولعلنا نستطيع أن نكشف هذه الناحية لقراء الرسالة فى بحث شامل

(٣) سمعت الاستاذ ينطق المبرد بالفتح وانما هو بالكسر حتى كان يقول برد الله من برد

الأستاذ أن ينتقص جهد الجاحظ وآراءه فى الحيوان والنقد والبلاغة ، وفى كل ناحية من النواحى التى كتب فيها . وقال إنه كان ينتهب آراء غيره ، وكان يخلط بين النقد والبلاغة ، على أن هناك فرقا بين الناحيتين ، ولقد كان الجاحظ فى مؤلفاته يثير كثيرا من المشاكل ويمس الأمور المعضلة القائمة فى عصره فيستطيع أن يشخصها ويكيفها ويلقى فيها الأسئلة القوية ، ولكنه كان يتركها عند هذا الحد ، فلا علاج يشفى ، ولا جواب ينتهى بالقارىء إلى رأى حاسم ، ولذلك كان من السهل على الجاحظ أن يؤلف فى الشىء وضده وأن يناقض نفسه بنفسه ما دام هو يقف فى ذلك عند الآراء الشائعة والمسائل الذائعة فى كل فرقة . ولقد روى أن أحد الأمراء أرسل إلى الجاحظ يطلب منه أن يحتج له فى رأى ، فكتب له الجاحظ بما طلب ، فعاد الأمير يقول له : إن الخادم قد غلط فى تبليغ الرسالة اليك وإنما أريد أن تكتب فى نقيض هذا الرأى ، فلم يتورع الجاحظ عن أن يكتب له .

قال الأستاذ : وقد كان الجاحظ من المتكلمين ، وكان الجدل والكلام فى عصره على غاية ما يكون من الشدة ، ولكنى لم أعرفه قد كتب كتاباً فى أصول الجدل أو ألف فى علم الكلام كما كانت تقتضيه وظيفته ويقتضيه عصره (١) ، ثم انتقد الجاحظ فى تحقيقه ، وأورد كلاماً للمسعودى فى ذلك إذ يقول : زعم الجاحظ أن نهر مكران الذى هو نهر السند من النيل . واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، وهذا تحقيق باطل ناقص ، لأن الجاحظ أقامه على قياس منطق نظرى فاسد النتيجة ولو طاوعنا الجاحظ فى قياسه لكان كل نهر فيه التماسيح هو من النيل ، لأن النيل فيه التماسيح

وكان من رأى الأستاذ أن غاية ما للجاحظ هو الأسلوب ففيه براعته وشخصيته ومميزاته ... ثم انتقده بالتكرار الممل ، وقال إن الجاحظ كان يستعمل عبارات ثابتة يكررها كثيراً حتى كأنها « كلشيهات » (٢) فهو ينقلها من كتاب إلى كتاب ومن موضع إلى موضع ، ومثل لذلك بكلامه فى اصطناع الكتب إذ أورده فى كتابه الحيوان ، وأعاده فى المحاسن والأضداد (١) ، وكذلك كلامه عن الحسد وعبارات كثيرة يدركها كل من وقف على كتبه .

(١) ليس هذا على ما نرى مما يعاب به الجاحظ ، لأن هناك فرقاً بين المتكلم والعالم بالكلام الذى من مهمته أن يؤلف فى الكلام ، وهل لنا أن نعيب المتنبى بأنه لم يكتب فى الشعر وهو شاعر

(٢) هى المعروفة فى العربية بالرواسم . . .

اليوم السادس

أما اليوم السادس وهو اليوم الأخير فقد اضطلع به الدكتور طه وحده ، وكان عليه أن يملأ فراغه فدرواق القول على كثير من نواحى الجاحظ مع أن موقفه فى القول كان عند « فكاهة الجاحظ » فتكلم أولا عن إطراء الأدباء للجاحظ وما يجب أن يكون له من هذا الإطراء ؛ ثم تكلم عن دعابة الجاحظ بما تكلم به الأستاذ ابراهيم مصطفى من قبل ، فقال إن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، وجعله أقرب وأعذب فى نفوس الجمهور والعامة ، ولقد أشرت إلى ذلك فيما كتبته فى تقدمة نقد النثر لقدامة ، وقد قلت إن الجاحظ أثر فى ابن الرومى من هذه الناحية ، فمهد له طريق التقصى فى المعنى والإسهاب (٢)

ثم تكلم فى فكاهة الجاحظ فقال : ولقد كانت الفكاهة من النواحى البارزة عند الجاحظ ، وما كان الرجل يقصد فى فكاهته إلى الضحك والأضحاك فحسب ، ولكنه كان يقصد أيضاً إلى التصوير ، ويقصد إلى التهكم والسخر ، ويقصد إلى النقد والهجاء ، وأورد فى الاحتجاج لذلك كلامه فى نقد الخليل ابن أحمد . ثم ذكر بعض فكاهاته فذكر من ذلك قصته مع محمد بن أبى المؤمل البخيل (٣) ، ثم انتدب الدكتور محمد عوض ليقرأ طرفاً من رسالة الجاحظ للمعتصم أو للتوكل يحضه على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب ، وفيها كثير من ألوان الدعابة والشعر الفكه (٤)

قال الدكتور : وعندى أن الجاحظ كان كفولتير ، فكما أن فولتير لم يكن عالماً فحسب ولا أديبا فحسب ولا فيلسوفا فحسب ولا اجتماعيا فحسب ، وانما كان له فى كل هذا وأكثر من هذا ، فكذلك نجد الجاحظ له فى الأدب والفلسفة

(٢) هذه فى الواقع مبالغة لا تتصل بالحقيقة فى شىء ، ولست ادرى لماذا أثر الجاحظ فى ابن الرومى دون غيره من الشعراء وفيهم من كان يعاشره ويقاربه أكثر من ابن الرومى .

(٣) هى مذكورة فى البخلاء ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) نجد هذه الرسالة كاملة فى جمع الجواهر للحصرى ص ١٦٦ وما بعدها .

والاجتماع الى آخر ماهو معروف عنه ؛ وكما أن فولتير لم يكن فى سخره وتهكمه يقف عند حد الفكاهة ولكنه كان يقصد الى كثير من الأغراض الشريفة ، فكذلك كان الجاحظ ، فالمشابهة قوية بين الرجلين (١)

ثم قال : فالجاحظ لاشك من الشخصيات الكبيرة ، وأهل العبقريات النادرة ، وهو حرى بالذكر والتكريم ، ونحن اذ نقوم له بهذا الأسبوع بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته ، فإنما نحن نؤدى له بعض الواجب ، ولا أكتمكم ياسادة اذا قلت لكم اننا فى حاجة كبيرة الى دراسة الجاحظ فى كتبه وآثاره دراسة وافية كما تجب الدراسة ، فاننا مع الأسف لا نعرف عنه الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط الينا من نوادره . وكلية الآداب اذا كانت قد فكرت فى اقامة هذا الأسبوع فانها أرادت أن تلفت الأذهان للعناية بالجاحظ ، وأن تنبه على وجوب دراسة تلك العبقرية الواسعة الشاملة

هكذا قال الدكتور الفاضل ، ولست أدرى اذا كانت كلية الآداب لا تعلم عن الجاحظ الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط من النوادر ، واذا كانت لم تقصد الا لفت الأذهان ، فمن الذى يكون عنده العلم بالجاحظ ، ومن الذى سيؤدى عنها هذا الحق للنقد والأدب

م . ف . ع

(١) لعل أستاذنا الزيات هو أول من نبه على الشبه بين الجاحظ وفولتير وإنه ليقول فى كتابه : إن الجاحظ هو فولتير الشرق .

لطلاب البكالوريا :

البلاغة التطبيقية

للاستاذين محمد برانق وحسن علوان

يشتمل هذا الكتاب على ذكر القواعد موجزة مع تطبيقات وافية فى « البيان والبديع » وتمرينات عامة مرتبة على حسب هذا المنهج وفى اخره مفتاح عن الاسئلة مع ترجمات لمعظم الأعلام التى وردت فيه

الثمن ٥ ص

يطلب من ملتزمة نشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

العاطفة (١)

وهى تحفة من الشعر الوصفى الرائع المبتكر فى أغراضه ومعانيه

للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

خلجاتٌ تهفو بقلب الشجىّ ... هى سرُّ الحياة فى كلّ حىّ

هى والرُّوح فى فؤادك صنوا ... نِ وفيض من عالَم عُلْوىّ

هى ذكرى بعد المشيب وسلوَى ... فى اكتهالٍ وصبوة للفتىّ

ومُنَى للغلام يهفو إليها ... وحنان يحوط مهدَ الصبىّ

رافقتْ رحلة الحياة وآخت ... نِضوَ أسفارها إخاء الوفىّ

هى للقلب نعمةٌ أو شقاء ... كم سعيدٍ بها وكم من شقىّ

رُبَّ من يبهر العيون رُواء ... ناء من همها بداء خفىّ

ظاهر منه يخدع العينَ عمّا ... ضمّن القلبُ من ضنى مطوىّ

من غرام مبرّحٍ أو فراقٍ ... أو منًى عُوجلتْ بصوت النّعىّ

باسم بين صحبه فإذا يخـ ... ـلو بكى شجوَه بدمعٍ شجىّ

وأخى منظر تراه فتنبُو الـ ... ـعينُ عن منظر رَثيث زَرِىّ

يبصر الناس منه ما يبعث الرحـ ... ـمة فى قلب شانئٍ وصفىّ

ما دَرَوْا أنه على البؤس يحيا ... بفؤادٍ خالٍ وبالٍ رخىّ

ملأت نفسَه السعادة حتى ... لا يبالى بمنظر أو بزىّ

نزعاتُ النفوس فى كلّ قلب ... ميّزتْ بين ساخطٍ ورضىّ

أسعدتْ آدماً وحوّاء حينا ... ثم أشقتهما بإفك الغوىّ

ورث النسلُ عن أبيه ميُولا ... لم تدَعْه فى ظلّ عيش هنىّ

ونفوسا حيرَى تقلّبها الأهـ ... ـواء مفتونة بكل طلىّ

فهى بين الآمال تمرح نشوَى ... ثم تصحو باليأس من كلّ شىء

إنّ للعاطفات حُكما قويا ... ظلمُه عاصف بكلّ قوىّ

كم أذلّت جبارَ قوم ، وغلّت ... من طليق ، وأسلمتْ من أبىّ

كم توَلّى جهادَها فى قديم الدّهر نُصْح لعالم ونبىّ

جاهَداها بالعقل حينا وحينا ... سخّرَا بعضَها لقتل البقىّ

وهى تقوَى مع الجهاد فوَيْل ... للورَى من جهادِها الأبدى

(١) تستعمل المواطف فى معنى ميول النفس ونزعاتها استعمالا شائعا فى كلام أهل العصر وهى المراد وصفها فى هذه القصيدة .